تربية الشخصية فى مرحلة البلوغ

بقلم الأستاذ محمد خلف الله

عضو بعثة دار العلوم بانجلترا

يجدر بنا ونحن فى دور نهضة وانتقال أن نأخذ حذرنا ، وألا نهمل تربية الشخصية فى فتياتنا وفتياتنا ، فى سبيل الحرص على تنمية مواهبهم الذهنية ، خصوصا بعد أن لمسنا بأنفسنا نقص الشبيبة المصرية فى الناحية الأولى ، وبعد أن شكت المصالح المختلفة ووزارة المعارف « من عجز خريجى المدارس الثانوية عن حسن القيام بالأعمال التى تعهد إليهم ، والتى ينبغى ألا يعجز عنها طوقهم فمعظمهم فاقد الشخصية متردد ، يهاب تكوين رأى له مستقل ، فضلا عن إعلانه ، وهم لا يكادون يبينون عن أفكارهم كلاما أو كتابة بعبارة موجزة بليغة صحيحة ، عربية كانت أو أجنبية » . (١)

هذه الشكوى صادقة ، وبحثها أول واجب على المربين والمصلحين ، والطريق إلى علاجها أصبح ميسورا ، ولا سيما بعد أن ارتقت مباحث علم النفس الحديث ، ووجهت نظرها إلى دراسة الشخصية بمختلف الطرق والأساليب العلمية ، وبينت مُثُل النمو الطبيعى فى الأفراد ، ومظاهر الضعف والشذوذ عند بعضهم ، ومصادر ذلك النقص والوسائل إلى تلافيه .

* * *

من المعروف أن الطفل يواجه فى مرحلة التعليم الثانوى — والعالى — دورا من أدوار نموه له خطره وأهميته ، أصطلح علماء النفس على تسميته بمرحلة البلوغ

(١) من تقرير معالى وزير المعارف المصرية عن التعليم الثانوى — أهرام ١٠ من مايو سنة ١٩٣٥

وحددوا زمنه بالتقريب فيما بين الثانية عشرة والعشرين من العمر ، وأجروا عليه التجارب ، وكتبوا فيه المؤلفات ، وتناولوه من وجهاته المختلفة . وإذ كان همنا فيما نحن بصدده أن نحلل هذه المرحلة من وجهتها النفسانية (١) ونقتصر من هذه على حاله ارتباط بالشخصية فلندع النواحى الأخرى لأوقاتها ولنقل إذاً ، إن الطفل يواجه فى هذا الدور مشكلات ثلاثا نفصل الكلام عليها فيما يلى :

المشكلة الأولى هى الخروج من وسط الأسرة إلى محيط المجتمع ، أو بعبارة أخرى هى معضلة النظام النفسانى ، إذ يتجه المراهق فى هذا الدور إلى تغيير عاداته والخروج عن مألوف طفولته ، والتحرر من رق الاعتماد على أبويه وأهله ، والرغبة فى الاستقلال فى حياته الوجدانية والعاطفية .

هذا الاتجاه طبعى ، وإذا سار سيرته الطبيعية وتغلب على ما يصادفه من عقبات لم يصل الشخص إلى سن العشرين إلا وقد استقل عن المنزل بشعوره ، وشب عن طوق استسلام الطفولة والتظلل بظل الأبوين ، وأعدّ نفسه لمواجهة الدنيا بما فيها من شؤون وصعاب .

غير أن التخلى عن صفات الطفولة ليس بالأمر السهل ، وكثير من الأشخاص يعجزون عنه فيبقون مرضى بحب المنزل طول حياتهم . وقد يشل هذا المرض إرادتهم فينشئون ناقصى الشخصية ، فاقدى الهمة والأمل . والذنب فى هذا ليس ذنبهم وحدهم بل هو ذنب البيئة والآباء الذين لا يُعَوِّدون الطفل من صغره الاعتماد على نفسه ، والذين ينظرون إليه على أنه ينتمى إليهم لا إلى نفسه ولا إلى الجيل الذى ينشأ فيه . وقد يغلون فى حبهم له فيكثرون من اهتمامهم الشديد به ووضعه فى فراشه ، ومناداته بأسماء الطفولة ومساعدته فى أكله ولبسه . وقد يسرف بعض الأمهات فى تعلقهن الشديد بأولادهن ، فيسببن لهم كثيراً من المتاعب التى تحول بين الكثيرين منهم وبين النجاح إذا فارقوا منازلهم إلى جهات بعيدة . وبحوث علم

(١) قد يكون من المناسب فى الكتابات الصيكولوجية أن نستعمل كلمة (نفسانى) لما هو خاص بعلم النفس - وكلمة (نفسى) لما هو منسوب الى النفس .

الفكر ، ناضجى التدبير ، يعملون بعزيمة وجد ، سائرين على الدرب الموصل إلى النجاح ، إذا نحن نجد آخرين قد وقفت بهم المطى ، وقصروا دون الغاية ، فلم يهتدوا إلى ما يناسبهم من عمل . وظلوا يتراوحون بين تجارة وتجارة أو بين مدرسة وأخرى .

* * *

وأما النقطة الجوهرية الثانية فى مرحلة البلوغ فهى معضلة اتخاذ فلسفة فى الحياة ، وتتناول إبصار الشخص فى نفسه ، وتفكيره فيما خلق له ، وفى الدور الذى سيلعبه على مسرح الحياة ، وفى علاقته بالجماعة الملاصقة له ، والمجموع الذى يعيش فيه ، وبوطنه وحكومته ، ونظره فى ملكوت السموات والأرض ، وفى معنى الوجود والخلود وسر الحياة والموت وماذا وراء الطبيعة من خفايا وأسرار .

هنالك فى بالغى كل أمة حوالى خمسة أو ستة فى المِئَة لا يرتفعون فى تفكيرهم إلى مستوى الطفل ذى الثانية عشرة . مثل هؤلاء لا يتعبون أنفسهم فى التفكير الفلسفى أو الدينى ، ولا ينظرون وراء الأسبوع أو الفصل الذى يعيشون فيه ، وإنما يأخذون الدنيا على علاتها يوماً بيوم ، وينعمون بجهلهم فى الحياة .

وهنالك من الجهة الأخرى نحو عشرة فى المِئَة من السكان يبدءون فى سن الطفولة يتساءلون عن الوجود وأسراره سؤال الجاد الظامىء ، وهؤلاء هم أذكى جيلهم وهم عرضة أكثر من غيرهم للتعب والنزاع العقلى ، ومن هؤلاء فيما بعد تنبعث المذاهب الفلسفية والأخلاقية . إلا أن المرحلة الطبيعية لتفكير غالبية كل أمة فى هذه المعضلات هى مرحلة البلوغ ، ففيها تثور الشكوك الدينية ، ويحتدم النزاع الداخلى ويكثر ولوع اليافع بالمناظرات السياسية والفلسفية ، وتشغل البنت أو الولد جزءاً كبيراً من الوقت فى التفكير فى النفس ، والاستعداد للمستقبل . أما نفس كل شخص فهى محور تجاربه ، وهى تظهر فى نواحٍ متعددة : فى منظر جثمانه ، فى أخلاقه وعمله ، فى تصرفه الاجتماعى . . . وهلم جرا ، ثم هى تستمد قواها من بيئته التى نشأ فيها : من معهده ولغته ، من دينه ووطنه . فنفس كل شخص إذاً هى مجموعة هذه الأنفس فيه ، وهى تنمو من جذيرات صغيرة تنبثق فى عهد الطفولة

ثم تأخذ شكلها الكامل فى مرحلة البلوغ ، وتتكيف بالصورة التى سيكون عليها الشخص طول حياته، وفى مرحلة البلوغ يقوى شعور الشخص بنفسه فيطيل النظر إلى المرآة ، ويعتنى بهندامه ، ويتنبه لشعور الناس نحوه وطرق خطابهم له ، ويحلم فى يقظته ومنامه بما تكنه له زوايا المستقبل .

وشأن البنات فى ذلك شأن الأولاد ، إلا أنهن يفقنهم بالطبع فى العناية بمظهرهن وملبسهن وتجميل أنفسهن .

وإذ كانت مدارك الشاب العقلية تصل فى هذه المرحلة إلى أقصى غايتها من النمو ، فمن الطبعى أن يشغل إذاً بالتفكير فى المعنويات بعد أن شغله عالم الحس والذات أيام الطفولة الأولى ، ومن الطبعى ، وقد كملت رجولته ، أن يطلب لنفسه مكانها فى هذا الوجود الشامل ، فهو يبحث عن الكمال لنفسه بين العظماء الذين يعيشون فى عصره ، وبين النابغين الذين يحدثه عنهم التاريخ . وبين الأبطال الذين تصورهم له تراجم الحياة ومسارح التمثيل وصفحات الروايات .

من هذا يدرك القارىء مس الحاجة فى هذه المرحلة إلى مساعدة الطفل على الحيطة فى اختيار الكتب التى يقرؤها : والروايات والأفلام التى يشهدها ، ومن هذا يدرك زعماء الأمة وكبراؤها مسئوليتهم أمام الله والتاريخ . إذ يضربون بأعمالهم مثلا سوف يقلده الجيل الناشىء ، فإن كان الكبراء بعيدى الهمة قوى الشخصية . ثابتى الإيمان ، مخلصين للوطن ، ترسم الناشئون خطاهم ، وبنوا كما كانت أوائلهم تبنى ، وإلا فقل على المستقبل ورجاله السلام . ومما يجب تنبه الآباء والمربين له أن يحتاطوا من أن يلجأ الولد إلى تقليد شخص واحد واتخاذه مثله الأعلى . بل عليهم أن يوجهوه إلى الاختيار وانتقاء الصفات والمزايا الفاضلة، فيقلد الشجاعة فى واحد ، والأمانة فى ثان ، والجلد والصبر فى آخر ، وهلم جرا . ثم ليحذر المشرفون على الطفل أن يدعوه يقلد غير الجوهرى من الصفات والعادات كالطفل الذى اعتاد أن يستعين بالمنبه على القيام من نومه فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فيخرج للرياضة مقلدا فى ذلك ماقرأه من أن جوته الشاعر الألمانى كان يفعل هذا أحيانا .

على أن التقليد وحده ليس كافيا فى بناء الخلق ، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتداد بها ، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذى تصل إليه طاقة الفرد فى مغالبة هذه الصعاب .

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به ، حراصا على نجاحه فى نضاله حتى لايسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم ، فيدفعه فى طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ فى الغالب من الخيبة فى معرفة النفس ، وفى العثور عليها وفى التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة . ولهذه الأمراض مقدمات تظهر عادة فى التحفظ الشديد ، والصمت الزائد ، والعزلة والجفاء . وانكسار البال . كذلك كثيرا ما يلجأ الأحداث فى مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر ، وتعاطى المخدرات إذ يجدون فيها مخرجا من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية .

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر ، أولهما شخصية الفرد ، وثانيهما عضويته فى المجموع .

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملا كبيرا فى تحديد تلك العلاقة وتكييفها ، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع ، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولا ، وبما تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة ، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه ، والدفاع عنهم ، والخضوع لقوانينهم . ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمى إلى وطن صغير له دستوره وتقاليده ، وهذا ينمى فيه شعوره بانتمائه إلى وطنه الأكبر ، مهبط أبيه وجده ومصدر فخره ومجده .

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد علمى بكيانه واستقلاله ، وغرس حب ذلك المعهد فى قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب ، من اتخاذ شارة خاصة له ، وإحياء أعياد سنوية ، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيه وصغارهم ، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابهين منهم ، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى .

على أن التقليد وحده ليس كافيا فى بناء الخلق ، فأهم منه الاعتماد على النفس والاعتداد بها ، واقتحام الصعاب ومعرفة الحد الذى تصل إليه طاقة الفرد فى مغالبة هذه الصعاب .

وليكن القائمون على أمر الطفل رفقاء به ، حراصا على نجاحه فى نضاله حتى لايسد عليه الإخفاق أبواب تفكيره السليم ، فيدفعه فى طريق الاجرام أو الجنون إذ أثبت علم النفس الحديث أن الاجرام والجنون والانتحار إنما تنشأ فى الغالب من الخيبة فى معرفة النفس ، وفى العثور عليها وفى التوفيق بين مطالب الحياة المختلفة . ولهذه الأمراض مقدمات تظهر عادة فى التحفظ الشديد ، والصمت الزائد ، والعزلة والجفاء . وانكسار البال . كذلك كثيرا ما يلجأ الأحداث فى مرحلة البلوغ إلى عوائد السكر ، وتعاطى المخدرات إذ يجدون فيها مخرجا من معضلات الحياة ومصاعبها الوجدانية .

أما تحديد علاقة الشخص ببيئته فذلك يقوم على أساسين لا يقوم أحدهما إلا بالآخر ، أولهما شخصية الفرد ، وثانيهما عضويته فى المجموع .

والمدرسة هنا تستطيع أن تكون عاملا كبيرا فى تحديد تلك العلاقة وتكييفها ، والتوفيق بين حرية الفرد وسلطة المجموع ، وذلك بما تقوم عليه المدرسة من وحدات اجتماعية صغيرة تسميها فصولا ، وبما تنظمه من حفلات وألعاب ورحلات ينمو فيها الشعور بروح الجماعة ، ويتعلم فيها الفرد الولاء لرفاقه ، والدفاع عنهم ، والخضوع لقوانينهم . ثم يشعر فيها فوق ذلك أنه ينتمى إلى وطن صغير له دستوره وتقاليده ، وهذا ينمى فيه شعوره بانتمائه إلى وطنه الأكبر ، مهبط أبيه وجده ومصدر فخره ومجده .

من هذا نرى ضرورة احتفاظ كل معهد على بكيانه واستقلاله ، وغرس حب ذلك المعهد فى قلوب طلابه بمختلف الوسائل والأساليب ، من اتخاذ شارة خاصة له ، وإحياء أعياد سنوية ، به وعقد حفلات يحضرها كبار خريجيه وصغارهم ، وإقامة ألواح الشرف يخلد عليها أسماء النابهين منهم ، وتنظيم المباريات العلمية والرياضية بين ذلك المعهد وأمثاله من المعاهد الأخرى .

وأما بحث الطفل فى مرحلة البلوغ عن تحديد علاقته بوطنه الأكبر فذلك ما يجب على أولى الأمر الآن فى مصر أن يولوه اهتمامهم ، وأن يعينوا الطفل فى جهاده فى هذه المرحلة بما ينظمون من محاضرات عامة ، ومن إذاعات على اللاسلكى وبما يزودونه به من دروس التربية الوطنية ليعرف الطفل حقوقه وواجباته ، وليعلم نظام الحكم فى بلاده ، وليقيس ذلك بما يعرفه عن نُظُم الحكم فى البلاد الأخرى .

ثم ليرحب من بيدهم الأمر بما يجدون عند الطفل من رغبة فى الجدل وحب فى المناظرة فيشجعوه على بحث الموضوعات التى تصبو إليها نفسه فى هذه السِّنّ ، كموضوعات : الحق والقوة ، الانسان الكامل ، الحكومة الفاضلة .. وهلم جرا .

أما الشعور الدينى فلا نسبة بين أهميته فى حياة الطفل وبين القدر الضئيل من العناية الموجهة إليه فى مصر . ويخيل إلى أننا فى مصر لا ندرك قيمة الدين عاملا من أكبر العوامل فى بناء الشخصية وتزويدها بالمثل الأعلى فى الحياة ، ولا دعامة من دعائم الاستقرار فى الأمة ، وتماسك أنظمتها ، وترابط صفوفها .

قلنا فيما سبق إن الطفل يشغل باله فى مرحلة البلوغ بمشكلات الخلق والوجود وأسرار المبدأ والمعاد ، ومعضلات الحياة والموت ، وأنه كثيرا ما يساوره الشك فيما حوله من أحكام ومعتقدات ، وأنه لهذا يلتمس الهداية من أب يسأله ، أو أستاذ يستوضحه ، أو كتاب يقرؤه ، ولقد أعرف بين رفقائى فى مصر من كانوا فى هذه المرحلة يصرفون وقتا فى التفكير والنظر ، وأعرف منهم من قرأ معظم كتب الغزالى وابن الحاج وابن رشد ، وأعرف من بينهم من كان يدون فى مذكراته اليومية كل ما يعرض له من شكوك وخواطر وما تقدمه يداه من سيئات وحسنات .

إذاً فمرحلة البلوغ فرصة يجب اغتنامها لمن يغارون على دينهم وأمتهم ، ويحبون أن يروا أبناء الأمة وبناتها ولهم وجهة نظر فى الحياة . وإيمان صادر عن علم ويقين . وهنا نجد السبيل مفتوحا للمتفقهين فى الدين يستخرجون ما فى كتاب الله وسنة رسوله وسير الصالحين وآراء الفلاسفة من أسرار وحكم ، ويصورون من كل هذا ومن تاريخ الأمة مثلا عاليا تتجه إليه نفوس الشبيبة ، وتقيس عليه أعمالها ، ثم يعرضون

على الناشئة تلك المثل فى كتاب أو رواية أو محاضرة ، أو حديث على البرق ، أو شريط أو خطبة فى يوم جمعة أو عيد ، أو افتتاح عام دراسى أو اختتامه . كذلك يجب علينا — وهو فى استطاعتنا — أن نهتم بإحياء التقاليد الدينية فى مدارسنا ومعاهدنا ، وأن ننتفع بالأعياد الدينية فيما قصدت له من تربية الشعب وجمع كلمته وإحياء شعوره ؛ وأن نحث بنينا وبناتنا ورجالنا ونساءنا أن يعمروا مساجد الله ، فإنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله .

وإذا ذكرنا الدين فلنذكر بجانبه لغة الدين ، لغة الحضارة الاسلامية ، لغة الوطن المحبوب ، لغتنا العربية . بلادنا من هذه الوجهة فى مركز غريب ، وستظل حياتنا الاستقلالية ناقصة ، وشخصيات أبنائنا مفككة حتى يعم التعليم فتتوحد اللغة وتتوحد الأفكار وتتوحد القلوب والجهود . وإننا — وإن كنا قد خطونا خطوات واسعة فى هذه السبيل فى الخمسين سنة الأخيرة — يجب أن نحث الخطا وأن نضاعف العمل ، وأن نستعين على تعميم الفصحى وتوطيد دعائمها بكل الطرق والوسائل . ومما يخطر لى فى هذا الباب إنشاء عصبة من المشتغلين باللغة يتواصون باستعمال الفصحى فى منازلهم مع أسرتهم وأولادهم ، وفى ناديهم ومدارسهم وكلياتهم . وأينما ضربوا فى الأرض أو مشوا فى الأسواق ، وليكن من عملهم أن ينشروا الدعوة فى رفق وكياسة ، وأن يغالبوا ما يصادفهم من عقبات ، وأن يحملوا قادة الرأى فى البلد على ان يجعلوا تعميم الفصحى نقطة بارزة فى برامجهم (١) . وهذه فى نظرى خدمة وطنية وخطوة فى سبيل الاستقلال الفكرى لا تقل أهمية عن إنشاء مصرف مصر فى بناء استقلالنا الاقتصادى .

للبحث بقية

محمد خلف الله

(١) ومن أولى بذلك من نادى دار العلوم !